مات اهلي

جبران خليل جبران

* * *

مات اهلي وانا قيد الحياة اندب اهلي في وحدتي وانفرادي

مات احبائي وقد اصبحت حياتي بعدهم بعض مصابي بهم

مات اهلي واحبائي وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادي وانا ههنا اعيش مثلما كنت عائشاً عندما كان اهلي واحبائي جالسين على منكبي الحياة وهضبات بلادي مغمورة بنور الشمس .

مات اهلي جائعين ، ومن لم يمت منهم جوعاً قضى بحد السيف ، وانا في هذه البلاد القصية أسير بين قوم فرحين مغبوطين يتناولون المآكل الشهية والمشارب الطيبة وينامون على الاسرة الناعمة ويضحكون للايام والايام تضحك لهم .

مات اهلي أذل ميتة ، وانا ههنا اعيش في رغد وسلام . وهذه هي المأساة المنتبة على مسرح نفسي .

لو كنت جائعاً بين أهلي الجائعين ، مضطهداً بين قومي المضطهدين لكانت الايام أخف وطأة على صدري ، والليالي أقل سواداً امام عيني . لان من يشارك اهله بالاسى والشدة يشعر بتلك التعزية العلوية التي يولدها الاستشهاد ، بل يفتخر بنفسه لانه يموت بريئاً مع الابرياء .

ولكني لست مع قومي الجائعين ، المضطهدين ، السائرين في موكب الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل انا هنا وراء البحار السبعة أعيش في ظل الطمأنينة وخمول السلامة . انا هنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا استطيع ان افتخر بشيء حتى ولا بدموعي

وماذا عسى يقدر المنفي البعيد ان يفعل لاهله الجائعين

ليت شعري ، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه !

لو كنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويزيل بحباتي يد الموت عن نفسه

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقضمني طعاماً .

لو كنت طائراً في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي ظل القبر عن جسده

ولكن ، واحر قلباه ، لست بسنبلة من القمح في سهول سوريا ، ولا بثمرة يانعة في اودية لبنان . وهذه هي نكبتي . هذه هي نكبتي الصامتة التي تجعلني حقيراً امام نفسي وأمام اشباح الليل .

هذه هي المأساة الموجعة التي تعقد لساني وتكبل يدي وتقفني بلا عزم ، ولا ارادة ، ولا عمل .

. . . . . .

يقولون لي — ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم ، وما الدموع والدماء التي هرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفق ليلاً ونهاراً في اودية الارض وسهولها

نعم . ولكن نكبة بلادي نكبة خرساء — نكبة بلادي بهيمة حملت بها روءوس الافاعي والثعابين — نكبة بلادي مأساة بغير اناشيد ولا مشاهد

لو ثار قومي على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين لقلت ان الموت في سبيل الحرية لاشرف من الحياة في ظلال الاستسلام . ومن يعتنق الابدية والسيف في يده كان خالداً بخلود الحق

لو اشتركت امتي بحرب الامم وانقرضت عن بكرة ابيها في ساحة القتال لقلت هي العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الاغصان الخضراء واليابسة معاً ، والموت تحت اقدام المواصف لاشرف منه بين ذراعي الشيخوخة

ولو زلزلت الارض زلزالها وقلبت ظهر بلادي صدراً وغمر التراب اهلي واحبائي لقلت هي النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى البشر فمن الجهالة ان نحاول ادراك اسرارها وخفاياها .

ولكن لم يمت اهلي متمردين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين .

مات اهلي على الصليب

ماتوا واكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة بسواد الفضاء

ماتوا صامتين لان آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم

ماتوا لانهم لم يحبوا اعداءهم كالجبناء ، ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين

ماتوا لانهم لم يكونوا مجرمين

ماتوا لانهم لم يظلموا الظالمين

ماتوا لانهم كانوا مسالمين

ماتوا جوعاً في الارض التي تدر لبناً وعسلاً

ماتوا لان الثعبان الجهنمي قد ألتهم كل ما في حقولهم من المواشي وما في اهرائهم من الاقوات .

ماتوا لان الافاعي ابناء الافاعي قد تنفسوا السموم في الفضاء الذي كانت تملؤه انفاس الارز وعطور النورود والياسمين

. . . . . .

مات اهلي وانتم ، ايها السوريون ، فماذا نستطيع ان نفعل لمن لم يمت منهم ؟

ان نواحنا لا يسد رمقهم ، ودموعنا لا تروي غليلهم

اذن ماذا نفعل لننقذهم من الجوع والشدة ؟

هل نبقى مرتابين ، مترددين ، متكاسلين ، مشغولين عن المأساة العظمى بتوافه الحياة وصغائرها ؟

ان العاطفة التي تجعلك ، يا اخي السوري ، ان تعطي شيئاً من حياتك لمن يكاد ان يفقد حياته هي هي الامر الوحيد الذي يجعلك حرياً بنور النهار وهدوء الليل .

وان الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة اليك هو هو الحلقة الذهبية التي تصل ما فيك من البشرية بما فوق البشرية

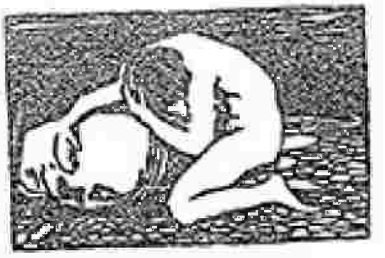

لا تستحي من اعطاء القليل فان الحرمان أقل منه .

(علي بن ابي طالب)

اذكر انك مدين لليتيم والعاري والجائع .

(بليشييف)

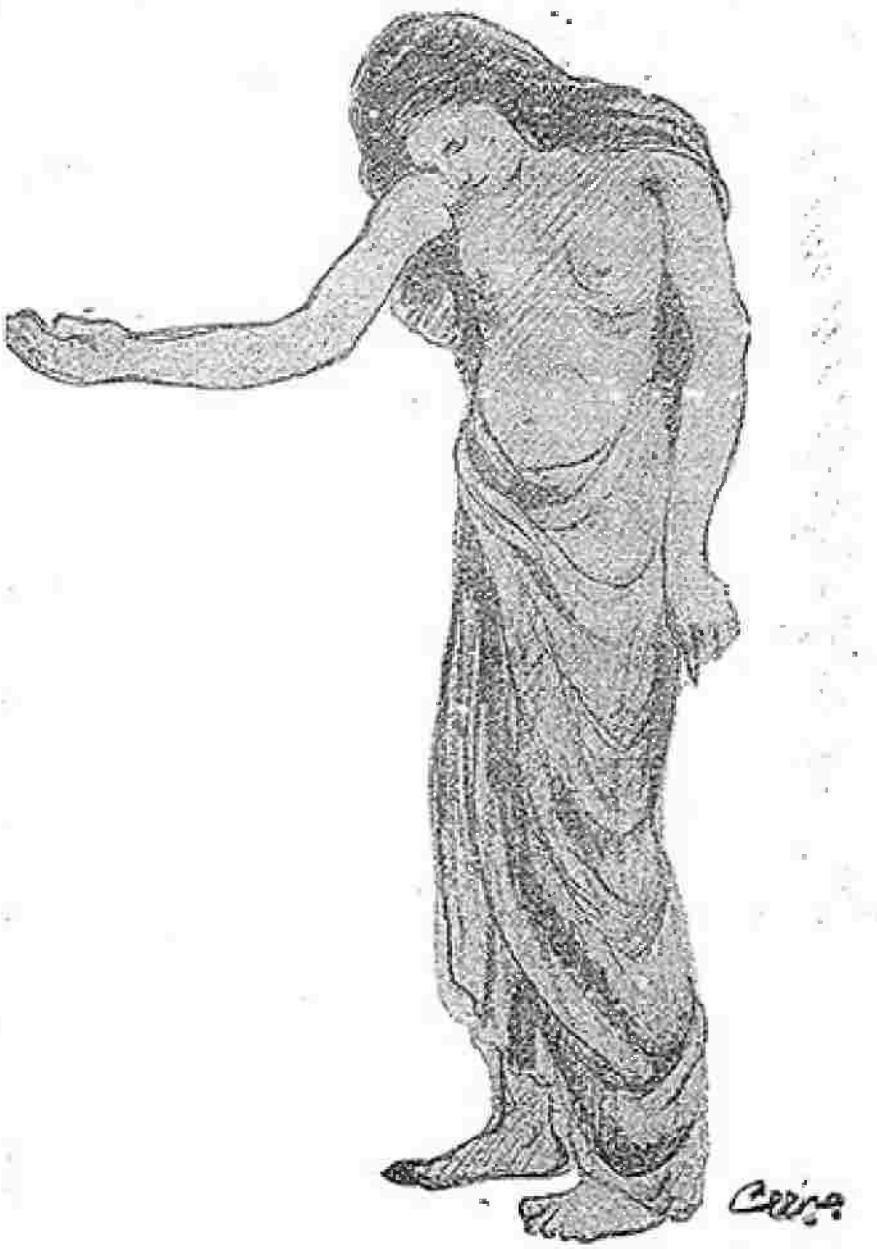

﴿ الجائعة المسنوطية ﴾ جبران خليل جبران